الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمـــد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١١ —

نظرة البراهمية الأولى

نصت « الفيدا » على أن الخيرين يذهبون إلى جوار الآلهة ويمتزجون بهم فى عالم الخلود ، وأن الشريرين يذهبون على بعض الأقوال إلى العدم المطلق ، وعلى البعض الآخر يتجسدون من جديد . ولما أصبح القول بالرأى الأول يتنافى مع عقيدة خلود النفس التى كانت قد عمت جميع البيئات المفكرة على أثر إيمان الناس بأن العالم ليس إلا أجزاء « براجاباتى » المتناثرة ، فلم يبق إلا الأخذ بالقول الثانى ، فأخذوا به وتفلسفوا فيه ، فنقلوه من تجسد ساذج إلى تناسخ فلسفى معقد ، ولكنه كان تناسخاً آرياً ، مبعثه السرور من الحياة والتفاؤل فى تقدمها وسيرها نحو الكمال والرغبة فى الامتزاج بالإله « براجاباتى » والاتصال ببقية الآلهة والشغف بتحقيق السرور والمعرفة الكاملة التى لا تتحقق إلا بالتناسخ الذى هو شبيه بفعل الإله « براجاباتى » فى تحقيق السرور والمعرفة ، إذ قررت شروح أحد نصوص « الفيدا » وهو النص الخاص بنثر أجزاء « براجاباتى » فى الكون ، أن هذه الأجزاء لم تنتثر إلا بدافعين قويين كانا عند هذا الإله : أحدهما الشغف بحيازة السرور ، والثانى الشوق إلى المعرفة . وإذاً ، فيجب أن يكون هذان المقصدان ضمن غايات التناسخ ليتم تشبهنا بهذا الإله الخير الذى رضى بتفريق أجزائه ، ليحوز السرور بوجودنا ، ولتحدث له المعرفة الكاملة بطوفان أجزائه فى الكون كله .

غير أن هذا التفاؤل لم يلبث أن تضاءل شيئاً فشيئاً حتى تلاشى نهائياً وحل محله تشاؤم قاتم قابض أثر فى الحياة الفكرية الهندية تأثيراً عميقاً . وقد نشأ هذا التشاؤم فى أول أمره من اعتقاد المفكرين فى أن الحياة خير كلها ، وأنها لهذا يجب الحرص عليها والتهالك فى الاستمساك بها ، ولكن قصرها من ناحية وعدم التحقق من الاستيلاء على زمامها من ناحية أخرى ، يوجدان حسرة فى القلب وضيقاً فى الصدر وشعوراً بخيبة الأمل يسود له المزاج وتنقبض له النفس ، وهذا هو الذى كان فى المبدأ ثم جعل يتطور مع الزمن حتى زالت العقيدة فى خيرية الحياة زوالا تاماً وحلت محلها عقيدة تناقضها تمام المناقضة ، وهى أن الانسان شقى تعس فى جميع أدوار حياته ، إذ هو فى حياته الأولى فريسة للمصائب والنكبات والمخاطر والأمراض ، وهو قاصر عن الاستحواز التام على جميع المتع والمسرات ، وإذا حاز شيئاً منها فالأجل قصير جداً يستوجب الشفقة والرثاء ، فاذا ترك هذه الحياة كان أكثر تعاسة وبؤساً ، إذ هو ينتقل فى الأجسام المختلفة من وضيع إلى أوضع ، غير عارف بمصيره ولا متحقق من حظه ، لأن كل مرحلة من مراحل حياته المتعددة تقذف به إلى المرحلة التى تليها قذفاً دون إرادة منه ولا اختيار ، وفوق ذلك فهو مسئول فى كل مرحلة من هذه المراحل التناسخية أمام الآلهة مسئولية قاسية على ما اقترف أو ما هوى فيه قسر إرادته من آثام وسيئات

وإذاً فالحياة شر ، والعالم شر ، وهذا الوجود المادى كله شر ، وكله باطل ، والحقيقة هى غيره ، والاعتقاد بأن هذا العالم المادى هو متناثرات أجزاء « براجاباتى » — كما كان سائداً فى الزمن السابق — جريمة من الجرائم ، لأن الآلهة حق ، وهذا العالم المادى باطل ، ولا يمكن أن يتكون الباطل من أجزاء الحق ، وإنما الصحيح هو أن أجزاء الحقيقة الالهية حالة فى هذا العالم المادى الباطل ، ولا وسيلة للخلوص من شر هذا العالم إلا استخلاص الحقيقة من الباطل ، ففى جانبنا الاستخلاص لا يتحقق إلا بالتخلى عن المادة ، وفى جانب الآلهة ، حسب الانسان أن يفهم أن وراء كل مظهر من هذه المظاهر حقيقة هى الجوهر الصحيح فى هذا المظهر . وهذه القاعدة عندهم تتناول حتى « براهما » رأس الآلهة نفسه ، فهم يعتقدون أن الحقيقة فى « براهما » هى « براهمان » أى الكائن

اللا شخصى أو الموجود المنزه عن الجرمية ، والحال حلولا غير مادى فى جميع عناصر الكون ، وأن ادراكه على هذه الصفة هو المحقق الأوحد للنجاة من التناسخ المؤلم ولضمان الخلود ، ولكن هذا الادراك لا يتيسر إلا بهجر المادة وتجنب جميع مظاهر الحياة العملية وتسليم النفس للتأمل العميق المنتهى إلى الغيبوبة والامتزاج بالله والفناء فى ذاته

الكتب الدينية فى عهود التطور

البراتات

« الفيدا » وهو الكتاب الأساسى للديانة البراهمية ، وهو وحده المنزل ، أما غيره من الكتب فهى من عمل البشر المصطفين الذين هم أقرب الناس إلى « براهما » وهى لذلك لا تصل من القداسة فى نفوس الشعب إلى المرتبة التى وصلت إليها « الفيدا » وهى كذلك غير معجزة ولا مستحيلة التقليد ولكن إمكان تقليدها مقصور على طائفة واحدة من المقربين وهى طائفة « راشين » من خواص البراهمة . وهاك حديث البيرونى عن هذا الكتاب :

« وأما البراتات — وتفسير براتن : الأول القديم — فإنها ثمانية عشر ، وأكثرها مسماة بأسماء حيوانات وأناس وملائكة بسبب اشتمالها على أخبار أو بسبب نسبة الكلام فيها أو الجواب عن المسائل إليها وهى من عمل القوم المسمين : « رشين » والذى كان عندى منها مأخوذاً من الافواه بالسماع فهو « آدبران » أى الاول . و « منج بران » أى السمكة و « كوم بران » أى السلحفاة . و « براه بران » أى الخنزير و « نارسنك بران » أى الانس الذى رأسه رأس أسد . و « يامن بران » أى الرجل المتقلص الأعضاء بصغرها . و « تاج بران » أى الريح . و « نندبران » وهو خادم له « مهاديو » و « اسكندبران » وهو ابن « مهاديو » . و « آدت بران » و « سوم بران » وهما النيران . و « سانب بران » وهو ابن « بشن » و « برهماندبران » وهو السماوات . و « ماركنديو بران » وهو « رش كبير » . و « تاركش بران » وهو العنقاء . و « بشن بران » وهو « ناراين » . و « براهم بران » وهو الطبيعة الموكلة بالعالم . و « بيشن بران » . وهو ذكر الكائنات فى المستأنف »

كتب أخرى

يروى لنا البيرونى كذلك أن للقوم كتباً كثيرة أخرى تعد بمثابة دساتير وقوانين دينية واجتماعية وأخلاقية . وقد لخص الكلام عنها فقال : « وأما كتاب « سمرت » فهو مستخرج من « بيذ » فى الأوامر والنواهى ، عمله أبناء « براهم » العشرون ولهم كتب فى فقه ملتهم وفى الكلام وفى الزهد والتأليه وطلب الخلاص من الدنيا مثل كتاب عمله « كور الزاهد » وعرف باسمه ومثل « سانك » عمله « كبل » فى الأمور الإلهية ومثل « باتنجل » فى طلب الخلاص واتحاد النفس بمعقولها ومثل « نايياش » لكابل فى « بيذ » وتفسيره وأنه مخلوق وتمييز الفرائض فيه من السنن . ومثل « ميانس » عمله « جيمن » فى هذا المعنى . ومثل « لوكايت » عمله المشترى » الخ

ألوهية الطور الجديد

كان العامة فى الهند بعد تطور « البراهمة » يعتقدون بوجود ثلاثة آلهة : الأول « براهما » وهو الرئيس الأعلى . الثانى « فيسنو » وهو إله الحياة الدائب على إنماء الحياة وإزهارها ، والثالث « سيفا » وهو إله التدمير والخراب الذى أهم ميزاته الهدم والإبادة والذى لولا سلطان « براهما » لصير الحياة منذ زمن بعيد أثراً بعد عين ، ولكن « براهما » الغير المحدود القوة يمسكه دائماً أن تميد ويحفظها من شر هذا المدمر الوحشى .

هذا عند العامة . أما الخاصة فكانوا يعتقدون — كما أسلفنا — بوجود إله واحد أزلى أبوى منزه عن الاستعانة بغيره وعن كل ما يوجب نقصه فى زعمهم .

وأبو الريحان البيرونى يذهب فى كتابه إلى ما هو أبعد من هذا فيؤكد أن فكرة الألوهية عند خاصة الهنود كانت سامية جليلة ، وأنهم كانوا يعبدون إلهاً متصفا بكل كمال ، منزها عن كل نقص . ويعلق على هذا بقوله : « ولنورد فى ذلك شيئا من كتبهم لئلا تكون حكايتنا كالشىء المسموع

فقط ، ثم يروى بعد ذلك محادثة وردت فى أحد كتبهم المقدسة بين سائل مسترشد ومجيب موضح ؛ وفى هذه المحادثة يرى الباحث الأدلة ناصعة على ما يدعيه البيرونى من سمو التأليه عند خاصة الهند . وإليكم نص هذه المحادثة : قال السائل فى كتاب « باتنجل » : « من هذا المعبود الذى ينال التوفيق بعبادته ؟ . قال المجيب : « هو المستغنى بازليته ووحدانيته عن فعل المكافأة عليه براحة تؤمل وترتجى ، أو شدة تخاف وتتقى ، والبرىء عن الأفكار لتعاليه عن الأضداد المكروهة والأنداد المحبوبة ؛ والعالم بذاته سرمدى . إن العلم الطارىء يكون لما لم يكن بمعلوم ، وليس الجهل بمنجه عليه فى وقت ما أو حال » ثم يقول السائل بعد ذلك : « فهل له من الصفات غير ما ذكرت ؟ ويقول المجيب : « له العلو التام فى القدر ، لا المكان ، فانه يجل عن التمكن ، وهو الخير المحض التام الذى يشتاقه كل موجود ، وهو العلم الخالص من دنس اللهو والجهل » : قال السائل : « أفتصفه بالكلام أم لا ؟ » قال المجيب « اذا كان عالما فهو لا محالة متكلم » ، قال السائل : « فان كان متكلما لأجل علمه ، فما الفرق بينه وبين العلماء والحكماء الذين تكلموا من أجل علومهم ؟ ... قال المجيب : « الفرق بينهم هو الزمان فانهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عالمين ولا متكلمين ، ونقلوا بالكلام علومهم إلى غيرهم ، فكلامهم وإفادتهم فى زمان ؛ وإذ ليس للأمور الالهية بالزمان اتصال . فالله سبحانه عالم متكلم فى الأزل ، وهو الذى « يراهم » وغيره من الأوائل على أنحاء شتى ، فمنهم من ألقى اليه كتابا ، ومنهم من فتح لواسطة اليه باباً ، ومنهم من أوحى اليه فنال بالفكر ما أفاض عليه » ، قال السائل : « فمن أين له هذا العلم ؟ » قال المجيب : « علمه على حاله فى الأزل وإن لم يجهل قط ، فذاته عالمة لم تكتسب علماً لم يكن له كما قال فى « بيد » ، قال السائل : « كيف تعبدون من لم يلحقه الاحساس ؟ » قال المجيب : « تسميته تثبت أنيته ، فالخبر لا يكون إلا عن شىء ، والاسم لا يكون إلا لمسمى ، وهو وإن غاب عن الحواس فلم تدركه ، فقد عقلته النفس وأحاطت بصفاته الفطرة ، وهذه هى عبادته الخالصة ، وبالمواظبة عليها تنال السعادة

ثم يعقب البيرونى على هذه المحادثة بقوله : فهذا كلامهم فى هذا الكتاب المشهور . وفى كتاب « كينا » وهو جزء من كتاب « بهارث » فيما جرى بين « باسديو » و « أرجن » : إنى أنا الكل من غير مبدأ بولادة ومنتهى بوفاة ، لا أقصد بفعلى مكافأة ولا أختص بطبقة دون أخرى لصداقة أو عداوة ؛ قد أعطيت كلا من خلقى حاجته فى فعله ، فمن عرفنى بهذه الصفة وتشبه بى فى إبعاد الطمع عن العمل ، انحل وثاقه ، وسهل خلاصه وعتاقه » وهذا كما قيل فى حد الفسلفة : إنها التقيل بالله ما أمكن . وقال فى هذا الكتاب : اكثر الناس يلجئهم الطمع فى الحاجات إلى الله . وإذا حققت الأمر لديهم وجدتهم من معرفته فى مكان سحيق ، لأن الله ليس بظاهر لكل أحد يدركه بحواسه ، فلذلك جهلوه ، فمنهم من لم يتجاوز فيه المحسوسات ، ومنهم من إذا تجاوزها وقف عند المطبوعات ، ولم يعرفوا أن فوقها من لم يلد ولم يولد ولم يحط بعين أنيته أحد ، وهو المحيط بكل شىء علما » (١)

(يتبع) محمد غلاب

---

(١) انظر صفحتى ١٣ ، ١٤ من كتاب البيرونى

فى أصول الأدب

للاستاذ احمد حسن الزيات

كتاب جديد فريد فى نوعه . يشتمل على أبحاث تحليلية طريفة فى الأدب العربى وتاريخه . منها تاريخ الأدب وحظ العرب منه . العوامل المؤثرة فى الأدب ، أثر الحضارة العربية فى العلم والعالم . تاريخ حياة ألف ليلة وليلة وهو أوفى بحث كتب فى هذا الموضوع إلى اليوم . ثم قواعد تفصيلية للرواية التمثيلية الخ الخ .

يطلب من ادارة مجلة الرسالة وثمنه ١٢ صـ